خطبة عرفة

الحمد لله الذي جعل البيت العتيق مثابة للناس وأمنا، وأكرمه بالنسبة إلى نفسه تشريفا ومنة، فرض علينا حج بيته الحرام الذي جعله قبلة للأنام يردونه ورود الظمآن، واختار من بين خلقه سماعًا أجابوا إليه دعوته وصدقوا كلمته.

عباد الله ما أريد أن أقوله اليوم، أريد أن أتكلم عن السويعات القليلة القادمة، وأقصد بذلك الساعات التي هي بين انتهائنا من صلاة الجمعة حتى مغرب هذا اليوم العظيم، فإن من خير العلم العمل به.

عباد الله إن الله ﷻ كما منَّ على الحجيج بالتنعم ببيته، والطواف، والسعي، وعرفة، والمزدلفة، وما إلى ذلك من هذه النعم، فقد منَّ الله علينا بالعشر الأول من ذي الحجة التي قال عنها النبي ﷺ: **"مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ يَعْنِي أَيَّامَ الْعَشْرِ"**[1].

ثم منَّ الله علينا بيوم الجمعة، وهو أفضل أيام الأسبوع؛ ثم منَّ الله علينا بيوم عرفة، ويوم عرفة يستجيب الله بإذنه الدعاء ويعتق الرقاب، بل من أهل العلم من يرى أن أفضل أيام العام على الإطلاق يوم عرفة، وقبل ذلك قد منَّ الله علينا بالأشهر الحرم، ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، ثم منَّ الله علينا بإذنه بالساعات الأخيرة من يوم الجمعة التي فيها استجابة للدعاء.

إذن أقول أن السويعات القادمة ليست فقط أفضل ساعات الدهر، بل هذه الساعات القادمة لا تأتي في كل عام، بل قد تأتي في كل عشرون عاما، أن يقدر الله ﷻ أن تكون هذه الساعات الفاضلة التي هي آخر ساعات النهار في يوم هو أفضل أيام الأسبوع، يصادف يوم عرفة وهو أفضل أيام السنة كما قال بعض أهل العلم، وكل ذلك في أيام العشر التي أقسم الله بها، وكل ذلك في الأشهر الحرم، فهذا لا يأتي كل عام أيها الإخوة

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (969)، واللفظ عند أبي داود رحمه الله (2438).

المسلمون عباد الله، إذن فهذه الساعات القادمة لها شأن عظيم.

أقول أيها الإخوة المسلمون: كيف تكون حالتنا في هذه الساعات القادمة؟

تكون بين الخوف والرجاء؛ بين حسن الظن والحياء، بين الخوف من الذنوب وآثارها والعيوب ومضارها، وبين الرجاء في حسن ظننا بالله تعالى، حالتنا بين الخوف والرجاء، ندعو الله سبحانه ونحن موقنون بالإجابة أن يغفر هذه الذنوب، وأن يستر ويمحي هذه العيوب، وأن يحصننا ويجعل لنا وقاية من الذنوب والعيوب بالقلب السليم، واليقظة، وعدم الغفلة، هذه هي الحالة التي ينبغي أن نكون عليها.

اعلموا أيها الإخوة المسلمون أن السير إلى الله سير بالقلوب، إذا كانت هذه حالتك خوف من الله، ورجاء منه، وترجو أن يغفر الذنوب، ويستر العيوب، ويرزقك قلبا سليما حتى لا تقع في العيوب نفسها والذنوب ذاتها في يوم كهذا وفي شهر كهذا وفي ساعات كهذه، فإنك توقن أن الله يستجيب.

عباد الله؛ إن للذنوب آثار وهذه الآثار هي التي تصدنا عن طريق الله ﷻ، فإذا أذنب العبد ذنبا؛ فالأمر فقط ليس في السيئات التي يأخذها أمام هذا الذنب، ولكن الأمر في هذه الآثار المترتبة على هذه الذنوب؛ ومن آثار هذه الذنوب:

حرمان الرزق كما يقول النبي ﷺ: "**إِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ**"[1].

حرمان الطاعة ويا لها من أثر، تكون عبدا يطيع الله وتستمر على ذلك سنوات، ثم تقترف ذنبا أو ذنوبا، فإذا بك قد نسيت هذه الطاعة التي كنت مداوما عليها.

ومن آثار الذنوب كما يقول الله تعالى: ﴿**وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ**﴾ [الحج: ١٨].

يقول الحسن رحمه الله: **«هَانُوا عَلَيْهِ فَعَصَوْهُ، وَلَوْ عَزُّوا عَلَيْهِ؛ لَعَصَمَهُمْ»**[2].

لما اقترفنا الذنوب وأفسدنا، ويرانا علام الغيوب، يهون الإنسان، ويقع، ويسقط من عين

---

[1] أخرجه أحمد رحمه الله في مسنده (22386)، وأخرجه ابن حبان رحمه الله في صحيحه (872)، وصححه السيوطي رحمه الله في الجامع الصغير (4262).

[2] أورده ابن رجب في تفسيره رحمه الله (314/2).

الله، فيعصيه، ولو أعزه الله وأحبه لعصمه من هذه الفتن ومن هذه المعاصي.

إذن أنت مقبل على هذه السويعات تخاف عبد الله الذنوب وآثارها، والعيوب ومضارها، وتعلم بخوفك هذا أنك مقبل على قبر مظلم، كما يقول الرقاشي رحمه الله: **«وَيْحَكَ يَا يَزِيدُ! مَنْ يَصُومُ عَنْكَ؟! مَنْ يُصَلِّي عَنْكَ بَعْدَ الْمَوْتِ؟! وَمَنْ ذَا يَتَرَضَّى لَكَ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ؟! ثُمَّ يَقُولُ: يَا مَعْشَرَ النَّاسِ! أَلَا تَبْكُونَ وَتَنُوحُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ بَاقِي حَيَاتِكُمْ؟! مَنِ الْمَوْتُ مَوْعِدُهُ، وَالْقَبْرُ بَيْتُهُ، وَالثَّرَى فِرَاشُهُ، وَالدُّودُ أَنِيسُهُ، وَهُوَ مَعَ هَذَا يَنْتَظِرُ الْفَزَعَ الْأَكْبَرَ!! ثُمَّ يَبْكِي حَتَّى يَسْقُطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ»**[1].

أيها الإخوة المسلمون عباد الله قبل أن نُقْبِلَ على الله في هذه الساعات القادمة لا بد وأن تعرف مقدار نفسك، تعرف ما مدى تقصيرك، وذنوبك، وعيوبك، وما مدى نِعم الله عليك، لا بد أن تستحضر، وأن تعلم، وأن تتيقن قوله: **"أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ"**[2]، يقول الحسن رحمه الله: **«ما من يومٍ إلا وملك الموت يتصفح وجوه الناس خمس مرات، فمن رآه على لهوٍ ولعب، أو معصية، أو رآه ضاحكاً؛ حرّك رأسه وقال: مسكينٌ هذا العبد، غافلٌ عما يُراد به، ثم يقول له: اعمل ماشئت فإن لي فيك غمزة أقطع بها وتينك»**[3].

هذا الذي أقوله أيها الإخوة المسلمون، أن نقبل على الله بخوف من الذنوب وآثارها، ومن الموت وسكراته، والقبر وظلماته، ويوم القيامة وكرباته، والصراط وزلاته، فهذا جزء من حالتك.

أما الجزء الآخر: أن تحسن الظن بالله فتكون حالتك بين الخوف والرجاء، وتكثر من الدعاء في هذه الساعات، فإن أفضل الدعاء كما قال النبي ﷺ: **"خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ"**[4]، وتدعو الله وأنت موقن بالإجابة بحسن ظنك بالله، وتعلم أن الدعاء هو العبادة كما أخبرنا الحبيب ﷺ، ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠].

---

[1] المجالسة وجواهر العلم (730)، لأبو بكر الدينوري رحمه الله.

[2] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (6306).

[3] ربيع الأبرار ونصوص الأخيار (153/5)، للزمخشري رحمه الله.

[4] أخرجه الترمذي رحمه الله في سننه (3585)، وحسنه الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي (3585).

الله يغضب إن تركت سؤاله ... وبُنَيُّ آدمَ حينَ يُسأل يغضب

وقال النبي ﷺ: "**ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ**"[1].

أيها الإخوة المسلمون، حسن الظن الذي أعنيه: هو توقع الجميل من الله سبحانه وتعالى توقع الأمر الطيب من الله تعالى، يقول النبي ﷺ عن الله سبحانه وتعالى: "**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي**"[2].

وإن كنت مكبلا ومحملا بالمعاصي والآثام؛ فإنّ الله سبحانه وتعالى أكبر، وأنه هو القادر على أن يعافيك من كل هذا، أيها الإخوة المسلمون عباد الله، ندعو الله سبحانه وتعالى ونحن نعلم أن:

مع المعاصي المغفرة، ومع الآثام الرحمة

ومع الضيق الفرج، ومع الألم الأمل

وأن مع العسر يسرا

هذا هو حسن الظن بالله سبحانه وتعالى أن تتوقع عكس مع تفعله أنت.

فكان عمر رضي الله عنه يقول: «**إِنِّي لَا أَحْمِلُ هَمَّ الْإِجَابَةِ، وَإِنَّمَا أَحْمِلُ هَمَّ الدُّعَاءِ**»[3].

ويقول علي رضي الله عنه: «**ما ألهم الله سبحانه عبدًا الاستغفار وهو يريد أن يعذبه**»[4].

عباد الله من الناس من يدعو الله ولكن لا يحسن الظن، فإما أن يقول: كيف يسامحني الله على ما اقترفت من كثرة الذنوب؟ أو أن يدعو مرة، وثانية، وعاشرة، فلم يستجب له، فيظن أن الله لا يستجيب له، وهو لا يعلم رحمة الله به، فقد يكون الدعاء الذي يدعو به ليس في مصلحته، كما ضربنا مثلا قبل ذلك بشاب يريد أن يتزوج بفتاة، وهو يدعو الله: يا رب، يسر هذا الأمر، والله لا ييسر له، والشاب لا يعلم أن الله لو يسر هذا الأمر؛ لكانت سببا في شقائه أو كان سببا في شقائها، وقد يستجيب الله في وقت معين هو أفضل

---

[1] أخرجه الترمذي رحمه الله في سننه (3479)، وحسنه الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي (3479).

[2] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (7405)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (2675).

[3] الفتاوى لابن تيمية رحمه الله (193/8).

[4] إحياء علوم الدين (313/1)، للغزالي رحمه الله.

للداعي، فأحسن الظن بالله، واعلم أن ما يفعله الله هو الأفضل لك.

أيها الإخوة المسلمون عباد الله، سُمع الداراني وكان في معزل يدعو الله ﷻ، فاستمع له الحواري، وهو يناجي ربه يقول: «**لَئِنْ طَالَبْتَنِي بِذُنُوبِي؛ لَأُطَالِبَنَّكَ بِعَفْوِكَ، وَلَئِنْ طَالَبْتَنِي بِتَوْبَتِي؛ لَأُطَالِبَنَّكَ بِسَخَائِكَ، وَلَئِنْ أَدْخَلْتَنِي النَّارَ؛ لَأُخْبِرَنَّ أَهْلَ النَّارِ أَنِّي أُحِبُّكَ**»[1]، انظر إلى حسن الظن بالله.

أيها الإخوة المسلمون عباد الله، نقبل على الله بالخوف والرجاء وحسن الظن، ولنا في هؤلاء أسوة حسنة:

هل رأيتم عندما تستمعون إلى قوله تعالى في سورة يوسف عليه السلام: ﴿ **وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١٨** ﴾ [يوسف: ١٨]، ثم تتوالى القصة وسيدنا يعقوب عليه السلام يقول: ﴿ **وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ۝٩٤ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ۝٩٥ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًاۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ [يوسف: ٩٤ - ٩٦]، يقول العلماء: هذا حسن الظن، يعلم من الله ما لا يعلم أولاده.

يروي أحد الناس وهو ليس عالما أو شيخا، فهو مثلنا، وكان يصلي وعنده من الآثام ومن الذنوب مثل كل الناس، وهو من دمياط، هذا الرجل أصيب بشلل نصفي، فأصبح قعيدا على كرسي، ثم في مثل هذه الأيام فتح التلفاز وسمع التلبية: لبيك اللهم لبيك، فطلب من أولاده أن يذهبوا به إلى الحج، يقول: إنني لو ذهبت إلى الملك لن يردني خائبا، دخل في قلبه حسن الظن بالله، فذهب الرجل كما يقص حتى وصل إلى الكعبة وأقعدوه على كرسيه أمام

---

[1] شعب الإيمان (1040)، للبيهقي رحمه الله.

الكعبة ثم تركوه فترة من الزمن، يقول: فأخذت أنادي أن: يا رب إما تجعلني أمشي على رجلي وإما تدخلني القبر، لن أخرج من بيتك حتى تجعلني أسير على رجلي أو أدخل القبر، يقول: جلست أدعو حتى أصابني الصداع، فنمت، فإذا بهاتف يقول له: قم امش، فقمت ومشيت حتى باب الكعبة ونسيت أني لا أستطيع المشي، ثم علم أنه شفي فقال: يا رب لا يخيب من رجاك.

إذن فعلى العبد أن يكون بين الخوف والرجاء، بين حسن الظن والحياء من الله تعالى، كما أُثر عن الفضيل بن عياض وكان في عرفة «**أَنَّهُ وَاضِعٌ يَدَهُ عَلَى خَدِّهِ وَاضِعٌ رَأْسَهُ يَبْكِي بَكَّاءً خَفِيًّا، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى أَفَاضَ الْإِمَامُ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَقَالَ: "وَاسَوْأَتَاهُ وَاللهِ مِنْكَ وَإِنْ عَفَوْتَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ**»[1].

الخوف والرجاء، ماذا نطلب من الله ﷻ؟ أن يغفر هذه الذنوب، وأن يمحو هذه العيوب، وأن يرزقنا قلبا سليما حتى لا نقع في أمثالها، القلب السليم الذي يكون متيقظا لا غفلة فيه، كما بيَّنَ العلماء: «**أَنَّ الْقُلُوبَ لَا تُعْطَى مُنَاهَا حَتَّى تَصِلَ إِلَى مَوْلَاهَا، وَلَا تَصِلُ إِلَى مَوْلَاهَا حَتَّى تَكُونَ صَحِيحَةً سَلِيمَةً، وَلَا تَكُونُ صَحِيحَةً سَلِيمَةً حَتَّى يَنْقَلِبَ دَاؤُهَا، فَيَصِيرَ نَفْسَ دَوَائِهَا، وَلَا يَصِحُّ لَهَا ذَلِكَ إِلَّا بِمُخَالَفَةِ هَوَاهَا، فَهَوَاهَا مَرَضُهَا، وَشِفَاؤُهَا مُخَالَفَتُهُ، فَإِنِ اسْتَحْكَمَ الْمَرَضُ؛ قَتَلَ أَوْ كَادَ**»[2].

هذا القلب الذي لا يغفل عن الله ﷻ، وأنا لا أقصد بذلك أن يظل ساجدا راكعا ذاكرا، بل يسير في عمله ويفعل ما يفعله، ولكن قلبه منتبه لما يريده الله تعالى.

وهذه أمثلة على من يسمع كلاما وقلبه فيه يقظة، فيترجم هذا الكلام على حالته وعلى الآخرة:

عمر بن ذر: «**كَانَ إِذَا تَلَا: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾** [النحل: ٣٨]، **قَالَ: وَنَحْنُ نُقْسِمُ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِنَا لَيَبْعَثَنَّ اللهُ مَنْ يَمُوتُ**»[3].

---

[1] شعب الإيمان (3897)، للبيهقي رحمه الله.

[2] الداء والدواء (184/1)، لابن القيم رحمه الله.

[3] حسن الظن بالله (15)، لابن أبي الدنيا رحمه الله.

محمد بن واسع لما غاب عنه ابن عمه، فلما أتى إليه فقال له «**مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟ فَقَالَ: مِنْ طَلَبِ الدُّنْيَا، فَقَالَ: هَلْ أَدْرَكْتَهَا؟ قَالَ: لا، قَالَ: واعجبا! أَنْتَ تَطْلُبُ شَيْئًا لَمْ تُدْرِكْهُ، فَكَيْفَ تُدْرِكُ شَيْئًا لَمْ تَطْلُبْهُ؟**»[1]، يعني تطلب الدنيا ولم تحصلها، فكيف تحصل الآخرة وأنت لا تطلبها؟

إبراهيم بن أدهم أراد أن يدخل الحمام وكان هذا الحمام يغتسلون فيه، فقال له صاحب الحمام لا تدخل إلا بالأجرة، فبكى وقال: «**اللَّهُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِي أَنْ أَدْخُلَ بَيْتَ الشَّيَاطِينِ مَجَّانًا، فَكَيْفَ لِي بِدُخُولِ بَيْتِ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ مَجَّانًا**»[2].

أيها الإخوة المسلمون عباد الله؛ الحاصل أن نقبل على الله بخوف بسبب ذنوبنا وعيوبنا، وبرجاء بسبب حسن الظن بالله، طالبين أن يعفو عنا وأن يرزقنا قلبا يقظا حتى لا نقع في أمثالها، ونعلم ونوقن بالإجابة.

دَعْ عَنْكَ مَا قَدْ كَانَ في زَمَنِ الصِّبَا ... وَاذْكُرْ ذُنُوْبَكَ وَابْكِهَا يَا مُذْنِبُ

واذْكُرْ مُنَاقَشِةَ الحِسَابِ فَإِنَّهُ ... لا بُدَّ يُحْصَى مَا جَنَيْتَ وَيُكْتَبُ

لَمْ يَنْسَهُ المَلَكَانِ حِيْنَ نَسِيْتَهُ ... بَلْ أَثْبَتَاهُ وَأَنْتَ لاَهٍ تَلْعَبُ

وَالرُّوْحُ فِيْكَ وَدِيْعَةٌ أُوْدِعْتَهَا ... سَتَرُدُّهَا بالرَّغْمِ مِنْكَ وَتُسْلَبُ

وَغُرُورُ دُنْيَاكَ التيْ تَسْعَى لَهَا ... دَارٌ حَقِيْقَتُهَا مَتَاعٌ يَذْهَبُ

واللَّيْلَ فاعْلَمْ والنَّهَارَ كِلاَهُمَا ... أَنْفَاسُنَا فِيْهَا تُعَدُّ وَتحْسَبُ

وَجَميْعُ مَا خَلَّفْتَهُ وَجَمعْتَهُ ... حَقًّا يَقِيْنًا بَعْدَ مَوْتِكَ يُنْهَبُ

تَبًا لِدَارٍ لاَ يَدُوْمُ نَعِيْمُهَا ... وَمَشِيْدُهَا عَمَّا قَلِيْلٍ يَخْرَبُ

---

[1] التبصرة (146/1)، لابن الجوزي رحمه الله.

[2] تنبيه الغافلين (82/1)، للسمرقندي رحمه الله.